الفصل الثالث

الجدال مع أهل الكتاب ، لكن :

﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

كان الصراع في العهد المكي بين الوثنيين وبين المسلمين فحسب ، لذلك لا يجد الباحث آيات قرآنية تحاور أهل الكتاب .

لكن عندما حدثت الهجرة إلى الحبشة ، تبيّن مدى قرب النصارىٰ من المسلمين ، وذلك خلال دفاع النجاشي ـ ملك الحبشة ـ عنهم واحتفاله بهم ، لذلك قال تعالى يخلِّد هذا الموقف الرائع : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

[المائدة : ٨٢ـ ٨٣]

ثم كانت الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة ، ولم يكن في المدينة نصارىٰ إنما كان فيها يهود ، فاتخذ رسول الله ﷺ معهم الحكمة ، وعقد معهم معاهدة ، وكتب لهم وثيقة التعايش السلمي ، بيَّن من خلالها قواعد العلاقات بينهم وبين المسلمين ، من خلال رسم الحقوق والواجبات على كلا الطرفين .

لكن اليهود هم اليهود ، شعب لا عهد له ولا ميثاق ، شعارهم في الحياة : الخداع والمكر والإغراءات المادية ، ومن ثم القتل والتدمير ، حتى مع الأنبياء عليهم السلام ، ولذلك راحوا يحمِّسون شباب الأوس والخزرج ضد المسلمين .

وكان موقف رسول الله ﷺ يحمل طابع الحوار السلمي الهادىء ، فلم يتورَّطْ معهم بصراعات لا طائلَ تحتها ، إنما كما قرر القرآن الكريم : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ثم جاء الأمر الإلٰهي إلى رسوله ﷺ بالحوار والدعوة إلى دين التوحيد ، ليقف الطرفان على أرضية مشتركة ، لا يعلو فيها أحدٌ على أحد ، ولا يتعبَّد بعضهم بعضاً ، إنما هي دعوةٌ

إلى نبذ الشرك ، والاتجاه إلى الواحد الأحد سبحانه ، فلا بشراً ولا حجراً ولا نبياً ولا راهباً مع الله ، إنما الإله الواحد هو المعبود وحده .

فإن وافقوا على ذلك دخلوا في جناح السلم والحوار ، وإلا فدعهم يا محمد وما هم عليه ، وأعلنْ ومن معك أنكم مسلمون لله وحده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

لكنهم رفضوا واحتجوا بأن عزيراً هو ابن الله!! ومنهم من قال إن الله هو المسيح ابن مريم!! ومنهم من قال : إن الملائكة بناتُ الله ، قال تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ثم أوضح القرآن الكريم بشكل أوضح رفضه لمبدأ الطاعة والعبادة لأي أحدٍ إلا لله ، قال تعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ

ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٧٩ـ ٨٠] .

ثم وجه القرآن الكريم رسول الله إلى طرح قضية نبوَّته ، وهي التي كانوا يهدِّدون بها الأوس والخزرج في المدينة المنورة ، متبجِّحين صباحَ ومساءَ قائلين : سيُبعث فينا نبيٌّ آخر الزمان ، وسننتصر عليكم .

وبالتالي فالنبي الخاتم ﷺ هو المذكور في كتبهم السماوية ، وهو الذي بَشَّرَ به الأنبياءُ السابقون ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقال أيضاً :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف : ٦] .

لكن اليهود هم اليهود ، لقد حاولوا إخفاء الحقيقة ، فتكتّموا عن البشارات ، ولم يتحدّثوا ببعثة رسول الله ﷺ ،

فجاء القرآن ليفضح ذلك كله ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٩] .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وأصرُّوا على كتمان الحقيقة ، فتحدَّاهم القرآن بأن يُخرجوا التوراة للناس ، ففيها هذه البشارات بالنبي الخاتم ، قال تعالىٰ :

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٩٣ـ٩٤] .

فكيف قابل اليهود قضية الحوار القرآني النبوي ؟

لقد وقفوا موقف التعجيز والاستهزاء والسخرية ، فراحوا يُشيعون في المدينة المنورة مطالب غير معقولة ، يبتغون من خلالها إظهار عجز رسول الله وضعفه ! !

فتارةً يطلبون من رسول الله أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء ! وتارةً يريدون رؤية الله في اليقظة ! قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ

مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء : ١٥٣ـ ١٥٥] .

ولما لم يستفيدوا من هذه القنوات الحوارية ، توجَّه القرآن إلى قضية أخرىٰ .

إذا كنتم ـ أيها اليهود ـ تنتمون إلى وحي السماء ، وتدَّعون الإيمان بما جاء على نبيكم موسى عليه السلام ، وتؤمنون بالتوراة ، فلماذا لا تؤمنون بالرسول الخاتم ، وبما جاء به من السماء وهو القرآن الكريم ؟!

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٥٩] .

فتحوَّلوا إلى عنادٍ من نوع آخر ، حيث ادَّعوا أنهم شعب الله المختار ، فجاء الردُّ القرآني : إذا كنتم كذلك ، فاطلبوا الموت من قلوبكم لتنتقلوا إلى ربكم ، لأنه من كان حبيباً لله ووليّاً له ، أحبَّ فعلاً لقاء الله والتقرّب إليه ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ

﴿ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ٩٤-٩٦] .

هذه الدعاوي إن لم تقيموا عليها بيِّناتٍ فأنتم أدعياء!!

فلم يستطيعوا إقامة دليلٍ واحدٍ على تلك الدعوى التي حاولوا أن يرتفعوا بها على العرب ، بأنهم هم أحباب الله وأبناؤه!!

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة : ١٨] .

وعندما يصل الحوار إلى مسائل العقيدة ، نرى لغة الشدة واضحة ، لأن العقيدة هي الأساس ، ولا هوادة فيها أبداً ، فإما إيمان وإما كفرٌ ، أما أن يُقال إن (عزيراً) هو ابن الله فهذا مرفوضٌ قطعاً ، قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن

يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

[النساء : ١٧١]

ذلك لأن عزيراً والمسيح عبدان من عباد الله ، وهذا ما اعترف به المسيح عيسى عليه السلام ، حيث أقرَّ أنه بشر نبي ، وليس إلٰهاً ، إنما الإلٰه هو الله : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٠ـ ٣١] .

وإلا فإن أراد الله إهلاك العزير أو عيسى فمن ينصرهما من دون الله ؟!

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

[المائدة : ١٧]

بعد ذلك الصبر واتخاذ أساليب الحوار السلمي الهادئ الهادف ، كانت قضية المباهلة!!

وملخّص الحادثة :

في السنة التاسعة للهجرة أرسل النبي ﷺ وفداً إلى أهل

نجران يبلِّغهم دعوة الإسلام ، فما كان منهم إلا أن أرسلوا كبار القساوسة والأشراف وما إلى هنالك ، وكان عدد الوفد (٦٠) ستين راكباً ، ولما وصلوا إلى المسجد النبوي ، دخلوا على رسول الله ﷺ ، وبعد أن فرغ من صلاة العصر استقبلهم في المسجد ، فقاموا يصلُّون باتجاه الشرق ، فلما اعترض بعض الصحابة على ذلك ، قال الرسول : « دعوهم » ، فسأل واحد من أهل نجران ـ وكان نصرانياً ـ : أتريد منا يامحمد أن نعبدك ؟! فقال الرسول : « معاذ الله أن أعبدَ غير الله أو آمر بعبادة غيره فما بذلك بعثني الله ولا أمرني » فأنزل الله تعالىٰ في ذلك قوله :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ـ٨٠] .

ثم ساءلهم وساءلوه ، فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له : ما تقول في عيسى ابن مريم ؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارىٰ يسرُّنا إن كنتَ نبياً أن نعلم ما تقول فيه ، فقال رسول الله ﷺ : « ما عندي فيه شيءٌ يومي هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما قال في عيسى » .

فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل هذه الآية :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٩ـ٦١] .

فأبوا أن يقرُّوا بذلك .

وتظهر مسألة الجدال والحوار في القصة من خلال ما رواه البزار والطبراني بالسند المتصل إلى عبد الله بن الحارث رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لوددتُ أن بيني وبين أهل نجران حجاباً » من شدة ما كانوا يجادلونه[1] .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله دعا عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلي » .

ولما رأىٰ أعضاء وفد نجران ذلك خافوا من الملاعنة وطلبوا من رسول الله أن يعفيهم منها ، فقال : « قد أعفيتكم ، إن العذاب قد أظل نجران » .

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي : ١/ ١٥٥ .

وطلبوا الصلح ، فوافق رسول الله على ذلك ، وكتب لهم كتاباً يفصِّل فيه بنود المعاهدة والصلح[1] .

***

إذاً :

هناك من أهل الكتاب مسالمون أهل ذمة ، فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وهناك منهم محاربون معادون ، أو مناصرون لعدو الإسلام والمسلمين .

أما القسم الأول فهم الذين لهم كل أنواع الحوار والجدال بالحسنىٰ واللطف والإقناع ، لكن الذين عاندوا ، وحادوا عن سبل الحق ، فعلىٰ المسلمين أن يقيموا عليهم الحجة عن طريق تبيان الحقائق ، وعندما يصرُّون ويستكبرون ويستهزئون بالحق وأهله ، فعندها يجب أن تُسدل الستارة على الجدال بالحسنىٰ ، لتعلن ضدهم كل أنواع الحرب ، لأن من يقدّم

---

(١) للتوسع يراجع : سيرة ابن هشام : ٢/ ٢٠٤ ، طبقات ابن سعد : ١/ ٣٥٧ ، دلائل البيهقي : ٥/ ٣٨٥ ، عيون الأثر لابن سيد الناس : ١/ ٢٢٠ ، زاد المعاد لابن القيم : ٣/ ٦٣١ ، صحيح البخاري : ٥/ ٢١٧ ، صحيح مسلم : ٤/ ١٨٧١ ، مسند أحمد : ٣/ ١٧٥ ، سنن أبي داود : ٣/ ٤٣٠ ، وسيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، للمؤلف : ٤/ ١١٧ ـ ١٤٩ .

الوردة يعامل بالمثل ، أما الذي يصوِّب المدفع ويقتل الأبرياء ، فالإحسان لا ينفع معه أبداً ، إنما لا ينفع معه إلا السيف :

ووضعُ الندىٰ في موضعِ السيفِ للعلا
مضرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندىٰ

إن الحديد بالحديد يُفلحُ ! !

وهذا قرار الله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فللحديد فوائد كما للكتاب والميزان ، حيث فيه بأس شديد ومنافع للناس ، والمعاملة بالمثل واستخدام القوة هما السبيل للردِّ على الذين استثناهم الله من الحوار بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

لكن على الرغم من ذلك كله ، فلا بدَّ من الحوار والجدال وإقامة الحجة ، لأن الشعار الدائم هو : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وهذا هو الفيصل بين الطريق الصحيح الواضح ، وبين الطريق الخاطئ المظلم .

فإما ﴿لا إكراه في الدين﴾ وهي تضم كل مفردات التوحيد التي تعاقب على حمل لوائها أنبياء الله من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتمهم رسول الله ﷺ ، وهي التي عناها الله بقوله : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر : ٦٥] .

وهذا ليس أحلاماً وأماني ، إنما كما قال تعالىٰ : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣] .

وفي الجانب الآخر : طريق الطاغوت .

وهو الذي يجب على كل العقلاء في العالم أن ينبذوه ويبتعدوا عنه ، لا أن يقفوا في وجهه ويحاربوه ، والدليل على ذلك أن أنبياء الله سبحانه لم يحملوا السيف من أجل نصرة الحق ، إنما فقط عندما وقف الطواغيت في وجه الحق ، رفع الأنبياء السيف من أجل إبعادهم عن طريق تبليغ الحق للناس .

وفي السيرة الطاهرة ـ خاصة العهد المكي ـ نماذج حيَّة على ذلك ، فذلكم عمار ووالده ياسر ووالدته سميَّة ، يُعذَّبون

على الرمضاء حيث الحرُّ الشديد ، ولما مرَّ الرسول عليهم ، وشكوا إليه الحال الذي هم فيه ، لم يطالبهم بثورة على الطاغوت الأصغر أبي جهل ، ولم يقل لهم : قوموا بعملية اغتيالية ، إنما علمهم المنهج السلمي فقال : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

وهذا هو خط الأنبياء عليهم السلام ، وفي القرآن الكريم حوارٌ رائع بين أنبياء الله وبين الكفرة ، وفيه بيان واضح للخط السلمي الحواري الذي سار عليه الأنبياء ، قال تعالىٰ في رسم ملامح هذا الخط الرائع[2] :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا

---

(١) مستدرك الحاكم : ٣/ ٣٨٣ .

(٢) للتوسع يراجع كتاب : القدوة والأسوة في القرآن والسنة ، للمؤلف : ٣٦ـ٥٧ .

كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم : ٩-١٤] .

إنهما منطقان متضادان : منطق الكفر الذي يعلن الاستهزاء والسخرية ، ويعلن الشك في دعوة الأنبياء ، ويدعو إلى رؤية العذاب الذي يتوعَّد به الأنبياء ، ويهدد بالطرد من البلاد وما إلى ذلك .

أما منطق التوحيد فهو الذي يحاجج ويجادل بالتي هي أحسن ، ويحاور بكل ما هو مشترك ، ويرفع لواء السلم ، ويعترف أن المسألة ليست من خلق أفكاره ، إنما هي قضية يختص الله بها من عباده من يشاء ، وبالتالي ففي كل الأوضاع هناك توكل على الله وحده ، ومهما حدث فلا بد من الصبر حتى يأتي الله بالفرج .

وهذا الثبات والصبر هو أهم أساس من أسس الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وإلا فالذي يُجيز لنفسه شرعية الاستيلاء على السلطة بالقوة ، فإنه بذلك يعطي الآخرين الشرعية نفسها ، وهذا ما لا يقرُّه عاقلٌ أبداً ! !

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وبالتالي فحتى الجهاد في الإسلام لم يُشرع من أجل إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، إنما شُرع للوقوف في وجه من يريد إخراج الناس من عقائدهم بالإكراه أو من يريد إخراجهم من ديارهم بغير حق ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٨ـ٩] .

وإلا فكل من يؤمن بالإكراه إنما يحمل بقايا بذور الفرق الإسلامية البائدة ، كالخوارج والمعتزلة ، لأن المنطق الإسلامي الصحيح لا يُجيز ذلك ، إنما يدعو إلى قضية مركزية

وهي : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

أو هي ـ كما وردت في أول سور القرآن نزولاً ـ : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق : ١٩] .

أي : لاتطع الطاغوت فيما يأمرك به ، خاصةً إذا كان ذلك الأمر يخالف أمر الله سبحانه ، إنما مارس حقك في عدم طاعته ، لكن لا تخرج عليه ، لكن لا تغلق أبواب الحوار والجدال معه ، حتى لو آذاك فاصبر ، واسجد لربك واقترب منه ، وعندئذٍ سيكون ما وعد الله به المؤمنين : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] .

وهذا ما صوَّره المسيح عليه السلام عندما جاؤوا إليه يريدون أن يقتلوه ، فقام أحد تلاميذه واستل السيف ، وضرب به رئيس الشرطة فقطع أذنه ، فقال عيسى عليه السلام : ردَّ سيفك إلى مكانه فمن يأخذ بالسيف ، بالسيف يَهلِك ! !(١) .

وقريب من هذا الفهم الدقيق لمعنى (اللاإكراه) عبَّر عنه

---

(١) إنجيل متى : ٢٦/ ٥٢ .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين أُوكل إليه أمر الأمة ، صعد المنبر وقال : ويلكم إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً ، كيف تفتحون البلاد والناس لم يفهموا الإسلام بعد ؟!

وبهذا فهم العلماء المنصفون في الغرب عندما قرؤوا عن الإسلام ، وقارنوه بما هو مخالفٌ له من النظريات الوضعية ، فتوصلوا إلى نتيجة مهمة ، ملخصها : أن القرآن الكريم هو أفضل كتاب حواري ومع كل الناس ، وأن الإسلام ما انتشر بالسيف أبداً ، وأن أصحاب الديانات لم تعرف أرحم من المسلمين .

لذلك صرَّح (توماس كارليل) بقوله : ويلكم إن الإسلام هو ضحية السيف .

وأكد ذلك العالم الكبير (توينبي) في عدة مقالات ومناسبات ، من ذلك : كل من أخذ بالسيف به يهلك ، وقال : كل الحضارات التي تنشأ بالسيف تهلك ولا تنمو ، وقال : إذا اعترضوا عليَّ بالإسلام أنه أخذ بالسيف ولم يهلك ، فإنني أقول : إن الإسلام لم ينطلق بالسيف وأنتم الذين تخطئون ، بل إن الإسلام جاء بشيءٍ جديدٍ على العالم

كله ، وهو أنه أجاز للمخالفين له في الدين أن يعيشوا في ظله محترمين ، ونحن الغربيين لم نصل إلى هذا ، ولذلك نجد البروتستانت والكاثوليك يتقاتلون .

إذاً :

هذا منطق الأديان كلها ، أن ينذر النبي قومه ، ثم يدعهم وتفكيرهم ، وليختاروا مصيرهم بأيديهم ، فلا عنف ولا إكراه ، إنما : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] [النحل : ٣٦] .

* * *

ولعلنا وفي معرض الحوار مع أهل الكتاب نلتفت إلى مسألة مهمة ، وهي أن بعض المسلمين تتشدد في العلاقة معهم ، حتى كادوا يصلون إلى درجة تشويه الحقيقة الساطعة لانفتاح الإسلام على أهل الذمة ، من ذلك ما جعل بعضهم يطلق عليهم صفة النجاسة مستدلاً بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا

(١) توسع يراجع كتاب : في ظلال السيرة النبوية ، للمؤلف : ١٢٦ـ١٤٧ .

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

[التوبة : ٢٨]

إن مشكلة الكثيرين عندنا أنهم لا يحقّقون ولا يدققون ، فالعلماء المحققون مُجمعون علىٰ أن الشرك هو نجاسة عينية ، وبالتالي قال الإمام أبو حنيفة وأصحابه : لا يُمنع اليهود والنصارىٰ من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يُمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان .

وقال الكِيَا الطبري : ويجوز للذمي دخول سائر المساجد عند أبي حنيفة من غير حاجة[1] . لذلك سأنقل بعض المرويات التي توضح أن المسلمين لا يتشنَّجون في علاقاتهم مع أهل الكتاب ، إنما يفتح الإسلام ملف الحوار على مصراعيه ليكون لكل طائفة من الناس خصوصياتها ، بينما يجلس الجميع على طاولة (السواء) ليتناقشوا في القضايا المشتركة وخاصة قضية التوحيد .

قال أبو عبيد في (الأموال) : ومعنى قول عمر رضي الله عنه : (ولُّوهم بيعها ، وخذوا أنتم من الثمن) ، أن المسلمين كانوا يأخذون من أهل الذمة الخمر والخنازير من جزيتهم

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ٤/ ٤١ .

وخراج أرضهم بقيمتها ، ثم يتولى المسلمون بيعها فأنكره عمر ، ثم رخص لهم أن يأخذوا من أثمانها إذا كان أهل الذمة هم المتولين بيعها ، لأن الخمر والخنازير مال من أموال أهل الذمة ، ولا تكون مالاً للمسلمين!!

. . وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ فعنده : لهم ـ أي لأهل الذمة ـ دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها ، ولكن لا يستوطنون به ، وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم!!

. . . وقال الأثرم : سمعت الإمام أحمد يُسأل عن الرجل له قرابة نصراني يعوده ؟ قال : نعم ، قيل له : نصراني! قال : أليس عاد النبي ﷺ اليهودي ، ودعاه إلى الإسلام ؟!

. . . وجاء قيس بن شماس إلى النبي ﷺ فقال : إن أمه توفيت وهي نصرانية ، وهو يحب أن يحضرها ، فقال له النبي ﷺ : « اِركب دابتك ، وسر أمامها ، فإذا ركبت وكنت أمامها فلست معها » .

. . . وحكم ذبائحهم : فالفصل فيها قول الله تعالىٰ : ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ [المائدة : ٥] .

وقال حنبل : سمعتُ أبا عبد الله يقول : تؤكل ذبيحة اليهودي والنصراني!!

حتى إذا ذكروا على الذبيحة غير اسم الله .

فقد روىٰ أيوب بن نجيح قال : سألتُ الشعبي عن ذبائح نصارىٰ العرب ، فقلتُ : منهم من يذكر الله ، ومنهم من يذكر المسيح فقال : كُلْ وأطعمني!!

. . . وأما جواز معاملتهم ـ مِنْ بيعٍ وشراء ونحو ذلك ـ : فقد ثبت أن النبي ﷺ اشترىٰ من يهودي سلعة إلى الميسرة ، وثبت عنه أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعير ، ورهنه درعه!!

. . . وأما استئجارهم ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه استأجر دليلاً يدلُّه على طريق الهجرة ، وكان مشركاً ، فأمنه ودفع إليه راحلته هو والصدِّيق!!

. . . ويجوز نكاح الكتابية بنص القرآن ، قال تعالىٰ :

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة : ٥] .

. . . وقال الإمام أحمد ـ وفي رواية مهنا ـ في رجل تزوج

نصرانية فأمرها بترك شرب الخمر ، فإن لم تقبل ليس له أن يمنعها!!

وقال الإمام أحمد ـ في رواية مهنا ـ وقد سأله : هل يمنعها أن تُدخل منزله الصليب ؟ قال : يأمرها ، فأما أن يمنعها فلا!!

. . . وليس له منعها من صيامها الذي تعتقد وجوبه ، وإن فوَّت عليه الاستمتاع في وقته ، ولا من صلاتها في بيته إلى الشرق ، وقد مكن النبي ﷺ وفد نصارى نجران من صلاتهم في مسجده إلى قبلتهم!![1] .

إذاً :

ما يشيعه بعضهم هنا وهناك ، عن العداوة والبغضاء بين المسلمين وأهل الذمة ، محض افتراء يكذّبه القرآن ، وتدحضه السنة النبوية ، ويُردُّ عليه من خلال أحداث التاريخ الإسلامي ، لكن بشرط التمييز بين أهل الكتاب المسالمين ، الذين عاشوا مع المسلمين تحت مظلة واحدة ، فكان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فكانوا مجتمعاً واحداً ، دافعوا عن الوطن معاً ، وشاركوا في ازدهار الحضارة

---

(١) هذه مقتطفات متنوعة من الكتاب القيِّم الجامع : أحكام أهل الذمة للعلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله .

معاً ، وبين الحربيين المقاتلين من أهل الكتاب .

والتاريخ يشهد أن نصارى بلاد الشام وقفوا مع المسلمين ضد أبناء دينهم الرومان عندما اجتاحوا أرض المسلمين ، ووقفوا ضد الحملات الهمجية التي قام بها الصليبيون ، وصدق من قال : لم يعرف التاريخ فاتحاً مثل العرب والمسلمين .

أجل!!

لقد فتح الإسلام باب الحوار الإنساني الدعوي مع أهل الكتاب ، ومن الشواهد على ذلك قوله تعالىٰ :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

لكن مهمة الإيضاح والبيان تقع على عاتق المتنوِّرين من الموحدين ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

* * *